الفصل الثانى

أساطير الأخيار والأشرار

اذا كنا قد استطعنا أن نحدد فى الفصل السابق شكل الأسطورة الكونية بأنواعها المتعددة ، وأن نرجعها الى اهتمام روحى جمعى محدد ، فاننا نود أن نصنع هذا كذلك بالنسبة لأساطير الاخيار والأشرار • وأول شىء نذكره فى مجال المقارنة بين الأسطورة الكونية وأسطورة الأخيار والأشرار ، هو أن النوع الاول أكثر قدماً من النوع الثانى ذلك أن النوع الاول ينتمى الى مرحلة أولى من التفكير الشعبى حينما كان الأنسان يهدف الى أن يكون بنفسه ولنفسه تفسيراً محدداً وفلسفة محددة لظواهر الكون المختلفة • أما النوع الثانى فهو ينتمى الى مرحلة متطورة من التفكير الشعبى وصل فيها الانسان الى اعتناق دين من الأديان السماوية ، ولم يعد يتساءل حينئذ عن الظواهر الكونية ومصدرها ، لأن الدين السماوى الذى اعتنقه قد أراحه من هذا التساؤل • ولكن هذا الدين شغل اللاشعور الجمعى من ناحية أخرى بتفكير من نوع آخر ، أعنى بفكرة الخير والشر • وليس معنى هذا أن الأديان السماوية قد استحدثت هذا التفكير ، فلقد شغل الانسان بالخير والشر منذ القدم • والأسطورة الكونية نفسها هى قصة صراع بين الخير والشر من وجهة نظر الانسان البدائى • والخير هنا يتمثل فيما يعود على الانسان من الظواهر الكونية بالنفع ، مثل المطر وشروق الشمس ومقدم الربيع الى غير ذلك ، كما أن الشر يتمثل فى تلك الظواهر الكونية التى تحجب عنه هذا الخير مثل الجدب والظلام ومقدم الشتاء الخ • كما أن الحكاية الخرافية — وهى قديمة الأسطورة الكونية فيما يرى البعض — تحكى دائما عن انتصار الانسان الخير على الانسان الشرير • وفى هذا تتفق الحكاية الخرافية مع أسطورة الأخيار والأشرار من حيث انها تبحث عن الخير والشر فى الانسان ذاته • ولكن فى حين نجد الانسان الخير فى الحكاية الخرافية لا يصلح أن يكون نموذجا يحتذى به بأى حال من الأحوال لأنه بطل خرافى من ناحية ، ولان جزاءه مقدر له

قبل أن يقوم بمغامراته من ناحية أخرى ، نجد الانسان الخـــير فى أسطورة الأخيار انسان واقعى ، وهو يتميز عن غيره من الناس بأعماله التى تتسم بالفضيلة والبطولة فى آن واحد • ومن شأن الأسطورة فى هذه الحالة أن تجسد فيه الخير بحيث يصبح نموذجا يحتذى به •

ويمكنا أن نوضح هذا فنقول ان الانسان فى حياته العادية يفعل الخير والشر • وقد يكون الانسان أكثر ميلا الى الخير أو الى الشر • ومع ذلك فان الشعب لا ينشغل بهذا أو بذاك ، وذلك لأن الشعب لا ينظر الى الخير أو الشر من ناحية الكم وانما من ناحية الكيف ؛ أى حينما يتخذ الخير أو الشر دورا فعالا • ونحن نستشهد على ذلـــك بحقيقة واقعة نلمسها جميعا فى حياتنا • فقد يكون هناك شخص أشـــد ميلا لى الشر من الآخرين ، ومع ذلك فان القانون لا يدينه ؛ وقـــد يكون هناك شخص آخر أقل ميلا الى الشر من الانسان الأول ، ومع ذلك فان القانون يدينه لفعل واحد ارتكبه ، لأن شره فى هذه الحالة قد اتخذ دورا فعالا يعرض معه مصالح الآخرين للخطر • فالقانون ينظر الى عمل المجرم من ناحية الكيف ، وبالمثل يقدر الشعب عمل الانسان الخير والانسان الشرير من ناحية الكيف •

ولكن كيف يتخذ الشعب من الانسان الذى يعيش معه نموذجا للخير أو للشر ؟ أو بعبارة أخرى كيف يصبح الانسان من وجهة نظر الشعب وليا أو شريرا ؟ أما بالنسبة للولى فان الولاية تتحقق له عن طريقين : أولهما عمل الخير الذى يتسم فى أغلب الأحيان بالبطولة ، وثانيهما أن تتحقق له المعجزة بالاضافة الى عمله الخير • ومعنى هـــذا أن خيره لايرجع اليه هو نفسه فحسب ، وانما لا بد أن تسهم الســـماء فى ذلك كذلك •وليس من الضرورى أن تتحقق المعجزة تحققا فعليـــا وانما تلعب ثقة الشعب وتصوره فى ذلك دورا فعالا •

وعلى ذلك ، فاذا كان هناك انسان يعيش بين الشعب بطريقة خاصة تلفت أنظار الآخرين اليه ، لأن أسلوبه فى الحياة يختلف عن أسلوبهم ، ولأن ميله الى الفضيلة والى الخير يتخذ دورا فعالا ، فان

الشعب سرعان ما يلتف حول هذه الشخصية وينسب اليها المعجزات التى قد تتحقق تحققا فعليا أو بناء على تصوراته . وبالتالى فانه يؤلف حول هذه الشخصية حكايات أسطورية نطلق عليها أساطير الأولياء • ولاتختص هذه لأساطير بحياة هذا الانسان فحسب : بل تمتد الى ما بعد موته ، اذا قد تتم المعجزات عند قبره وفى المكان الذى كان يعيش فيه ؛ بل وعن طريق الأشياء التى كان يستخدمها والتى تصبح فيما بعد رقية تكسب مقدرته الخاصة •

على أننا نتساءل بعد ذلك : ما الذى يدفع الشعب لأن يصور الشخص الذى يعيش معه بمثل هذه الصورة ؟ أو بعبارة أخرى أى اهتمام روحى يدفع الشعب لأن يرى الشخص الذى يعيش بينه وليا والاشياء التى يستخدمها رقى ؟ ويمكننا أن نجيب عن هذا بايجاز بأن الشعب لا يكتفى بأن يرى الناس يفعلون الخير ، وانما هو يسعى الى تجسيد الفضيلة والخير فى نموذج يحتذى به ، أى أنه يريد أن يصنع لهما قياسا • ويبدا هذا التجسيد عن طريق مراقبة الانسان الخير فى مجاله الضيق الذى يعيش فيه . ثم يكتمل حينما تؤكد المعجزة عنصر الخير فى هذا الانسان الذى يصبح فيما بعد فكرة دينية عن الخير ، ونموذجا للفضيلة يسعى الشعب الى الاحتذاء به • وعلى هذا فان فكرة تجسيد الخير تنبع من الشعب ومن أجل الشعب نفسه • ولهذا فان الشعب لا يتساءل عن احساسات هذا الانسان الخير . كما لا يتساءل عن سلوكه وآلامه ، وانما يسعى الى استغلال هذه الشخصية فى تكوين مقياس للخير يتمثل أمام الناس جميعا بحيث يحتذونه ، وان صعب عليهم الوصول اليه •

هذه الصورة الأسطورية التى تتحقق فى الحياة ، تتحقق فى اللغة مرة أخرى ، أى فيما يحكيه الشعب من قصص حول هذا الولى• ويمكننا أن نقدم مثالا لأسطورة الأولياء تستطيع من خلاله أن ندرس الشكل اللغوى لهذا النوع الشعبى • والولى الذى تحكى عنه الأسطورة التالية هو الامام على بن أبى طالب • وربما نشأت هذه

الأسطورة وغيرها من الشيعة • ولكن هذا لا يعنى أنها نشأت عن التصور الشعبى لعلى • فمما لاشك فيه أن الشيعة يكونون جزاء من الشعب ، وانهم تعلقوا بشخصية على حتى فى أثناء حياته • وتحكى الأسطورة أن النبى أراد أن يغزو تبوك ، فأعد العدة لذلك وخرج من المدينة مع جيشه وأصحابه • ولم يكد النبى يفعل ذلك ، حتى هبط عليه جبريل عليه السلام وقال له : « يامحمد ، ربك يقرئك السلام ، ويخصك بالتحية والاكرام ، ويقول لك رد على ابن عمك الى المدينة ، فلى فى ذلك مشيئة وتدبير ، وأنا على كل شىء قدير » • ففعل النبى ما أمر به جبريل عليه السلام ، ورد عليا الى المدينة • ثم تمضى القصة فتصف رحلة النبى (ص) الى تبوك ، وكيف أن هرقل جمع جيشه وقسمه لمقابلة المسلمين ، وكيف أن الحرب كانت فى أول الامر سجالا بين المسلمين أمام جيش الروم • عندئذ أخذ المسلمون يولولون ويصرخون • وسمع النبى أن المقداد بين الأسود يبكى ، فسأل النبى : « مما بكاك ياسيد بنى كندة ؟ لاأبكى الله لك عينا • فرد عليه المقداد قائلا : لو كان سيف الله معنا فى هذا اليوم لأرحنا من هؤلاء الكفار الملاعين • فقال النبى (ص) ومن هو يامقداد ؟ فقال هو الامام على رضى الله عنه • فقال النبى (ص) : فكيف لنا الساعة به وهو بالمدينة ونحن بتبوك ؟ فلم يتم كلامه الا وقد هبط جبريل عليه السلام وهو يقول : « العلى الأعلى يقرئك السلام ، ويخصك بالتحية والاكرام ، ويقول لك يامحمد ناد بعلى فلو أنك بالمشرق وعلى بالمغرب وناديته أجابك بقدرة الله عز وجل ، وأنا على كل شىء قدير » • فما ان فعل رسول الله هذا حتى أجابه على وهو بالمدينة قائلا : « لبيك لبيك يارسول الله • ثم ان الامام على رضى الله عنه لبس عدته وتدرع وودع فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، وركب جواده وسار وهو يخاطب جواده الميمون ويقول : أقصد الى صاحبك محمد (ص) • ثم أطلق عنانه فمد الجواد الميمون أذرعته وعينيه باذن الله تعالى ، وامتد على الأرض وصدعها بحوافره ، فبقى الامام على رضى الله عنه طائرا » • وفى لحظة ظهر على بين صفوف المحاربين • والتفت جيش المسلمين فاذا بجيش الروم يولى الأدبار ، واذا بسيف يجول بين رؤوسهم • وتساءل المسلمون عمن يكون هذا

البطل المغوار • وأقسم بعضهم أنه على بن ابى طالب فى حين أنكر الآخرون وجوده ، لأنهم تركوه وراءهم فى المدينة •وتراهن غلامان مع سيديهما أنه ان كان هو على بن أبى طالب وصدق حديثهما ، فعلى سيديهما أن يعتقهما من الرق •ثم ذهبا وسألا هذا الفارس المغوار فقال لهما على « يا غلام أبى حذيفة ارجع الى مولاك وخذ منه لآمة حربك وفرسك حلالا • ويا غلام أبى أيوب الأنصارى ، ارجع الى مولاك وخذ منه الألف درهم أن قل له ويعتقك من الرق . فأنا على بن أبى طالب » ثم استأنف على القتال وبذلك تم النصر للمسلمين وقفلوا راجعين •

لقد وجد الشعب فى على ــ كما تمثل هذه الأسطورة ــ مقياسا ونموذجا البطل الخير أو الولى • وقد رأينا أن جواد على وسيفه قد اكتسبا نفس القدرة الخارقة للعادة التى اكتسبها صاحبهما • كما أننا نلاحظ أن السماء قد أسهمت فى تقدير هذا البطل الخير ، وذلك بأن محنته القدرة على فعل المعجزة وتتمثل المعجزة هنا فى الكلمة المنطوقة حينما قال المقداد للنبى : « لو كان سيفة الله معنا فى هذا اليوم لأرحنا من هؤلاء الكفرة الملاعين » وحينما أمر جبريل عليه النبى (ص) قائلا : « العلى الأعلى يقرئك السلام ، ويخصك بالتحية والاكرام . ويقول لك يامحمد ناد بعلى ، فلو أنك بالمشرق وعلى بالمغرب وناديته أجابك بقدرة الله عز وجل ، وأنا على كل شىء قدير (١) •

ومن الطبيعى أن هذه الحكاية لاتمثل اسطورة على كلها . ولو أننا جمعنا الحكايات الأسطورية التى ألفها الشعب حول على وهى تنتشر فى الكتب والمخطوطات بوفرة ، لاستطعنا ان نكون من ذلك أسطورة عربية تكاملة عن البولى من وجهة نظر الشعب •

هذا الانشغال الروحى الذى يدفع الشعب الى تجسيد الخير فى شخصية تعيش معه وتروقه تصرفاتها ، هو الذى يدفع الشعب

(١) انظر : « غزوة تبوك فى القصص الشعبى » للمؤلفة ــ حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس العدد الثامن ١٩٦٣ .

كذلك الى تجسيد فكرة الشر • وكما أن البطل الخير يتصل كل الاتصال بالسماء كذلك لا بد أن يصدر على الانسان الشرير حـــكم سماوى يتمثل فى اللعنة الأبدية التى تحل به • وليس الانسان المجرم من وجهة نظر القانون هو الانسان الشرير من وجهة الشعب • فالشعب لا يهتم بالسارق أو القاتل أو الخارق للقانون بأية وسيلة أخرى ، ولكنه الانسان الخارق للقانون السماوى • انه هو الذى يتملكه الشيطان فيتشكك فى دينه وفى قدرة خالقه ويصبح متعطشا لمعرفة أسرار الحيـــاة والى السعى وراء البحث عن علة كل شىء ، حتى تلك الأشياء التى لا يمكن تعليلها • هذا الانسان الذى تحول عن طاعة الله بسبب يأسه وشكه فى كل شىء يتجسد فى شخصية دكتور فاوست بطل مسرحية قصة فاوست الشعبية . كما يتمثل فى شخصية دكتور فارست بطل مسرحيه جوتـــه الرائعة • لقد حكمت السماء بأن يظل الشيطان مقدما يده لفاوست لأنه لا يود أن يهتدى إلى الله وأن يتخذه مناصرا له فى حياته • ومع أن الشيطان هو ممثل السر بل هو الشر نفســـه . فان فكـــرة الشر لاتتجسد فيه ، أى أنه ليس هو النموذج الذى يجب أن يتجنب الانسان الاحتذاء به . بل أن الشعب على العكس يعترف لـــــه ببعض الحق ، لأنه هو الذى يدفع بالانسان الى خوض تجربة الخير أو الشر ، وعلى الانسان أن يختار هذا أو ذاك •

ومن الطبيعى اننا نجد فى اطار هذا المعنى أساطير شتى عـــن الاشرار . عاشت وما تزال تعيش بين أصحاب الديانات المختلفة • وربما كانت أقدم أسطورة حكت لنا قصة الانسان الذى طغى وتكبر حتى حلت عليه اللعنة فى النهاية . فحرمته من هدوء النفس الآمنة المطمئنة • هى أسطورة جلجامش البابلية التى سبق الحديث عنها • حقا أن هذه الأسطورة لا ترجع الى عصر ساد فيه دين سماوى • فهى ترجع الى الألفى سنة قبل الميلاد • ولكن جلجامش هذا كان انسانا يمتلك قوة خارقة للعادة ، فسولت له نفسه أن يصنع صنع الآلهة . وأن يعرف منها بعض الأمور الغامضة على البشر . فما كان من الآلهة الا أن تركته يقضى عمره فى تجوال شاق مضن حتى استسلم فى النهاية الى اليأس وعذاب النفس • ومع ذلك فاننا لا نعد أسطورة جلجامش ضمن أساطير الأشرار ، لأنها

لا تتساءل عن فكرة الخير والشر بقدر ما تتساءل عن موقف الانسان من الحياة ومن الالهة .

وبالمثل رويت عن أصحاب الدين المسيحى اساطير عن مثل هؤلاء الأشرار . فقد روى أن المسيح أراد أن يستريح أمام باب حـــذاء ، فجـــاء هذا الحذاء وأمره أن يبرح عتبة داره . حينئذ أجاب المسيح: « من الآن حتى نهاية الحياة ، ستهيم على وجهك على غير هـــدى » وقد حلت اللعنة بهذا الرجل منذ ذلك الحين . فهو يتجول من بلـــد لآخر بغير انقطاع دون أن يحصل على راحة النفس . حتى راحة الموت قـــدر له ان يحرم منها . وكان حيثما حل ، حل معه الشر (١) .

لقد تجسدت فكرة الشر فى هذا الانسان الذى تنكر للمسيح وتحامل عليه معتمدا على جبروت الانسان الذى يرى نفسه فى بعض الأحيان الها فى الأرض . ولكن المعجزة السماوية تحققت معه تماما كما تحققت مع الانسان الخير . وقد تحققت كذلـك عن طريق الكلمة المنطوقة ؛ أى فى نطق المسيح بحلول اللعنة الأبدية عليه .

كذلك تمدنا الروايات العربيـــة بكثير من أســـاطير الأشرار التى تتميز بالتنوع والغنى . ونحن نكتفى هنا بالاشارة الى مثالين يشيران الى ذلك . الأسطورة الأولى تحكى أن أمية بن أبى الصلت ، وهـــو شاعر عربى مخضرم ، « التمس الدين وطمع فى النبوة لأنـــه قرأ فى الكتب أن نبيا يبعث من العرب ، فكان يرجو أن يكونه » . وذات يوم دخل على أخته وهى تهيء أدما لها . فأدركه النـــوم فى سريـــر بجوارها . ونظرت أخته ، « فاذا بجانـــب من السقف قـــد انشق ونفذ منه طائران أحدهما وقع على صدره ، بينما ظل الآخـــر فى مكانه . فشق الطير الواقع صدره ، فأخرج قلبه وشقه ، ثم ســـأل الطير الواقف الطير الآخر قائلا : أوعى ؟ قال وعى . قـــال : أقبل ؟ قال : أبى . قال : فرد قلبه فى موضعه . ثم انطبق السقف وجلس أميه

Andre Jolles : op. cit. S. 52.

يمسح صدره • ثم قالت له أخته : يا أخى هل تجد شيئا ؟ قال : لا ولكنى أجـد حرا فى صدرى » • ثم أنشـأ يقـول :

ليتنى كنت قبل ما قد بـدا لى ... فى قنان الجبال أرعى الوعو لا
أجعل الموت نصب عينيك واحذر ... غولة الدهر أن للدهر غولا (١)

فأمية هنا شخصية واقعية نبذها الشعب لجبروتها وادعائهـا كذبا ما ليس فى طاقة البشر • ولذلك فقد أصبح نموذجا للانسـان الشرير الذى يأبى • رغم وعيه ، أن يحيـد عن شره • أما المعجزة فتتمثل فى هذين الطائرين اللذين أرادا أن يكشـفا عن شره وأن يبينا مصيره • فلما تبين لهما أنه لا يريد أن يحيد عن ضلاله وضعا قلبـه فى صدره وانصرفا • ومعنى هـذا أنه قد أصبح انسانا لا يرجى صلاحه •

ومثل هذه اللعنة حلت بالضحاك الذى كثرت حوله الأساطـير فى الكتب العربية القديمة • ورغم أن الضحاك شخصية غير محـددة المعالم ، فانه على أى حال نموذج للانسان الشرير • وتحكى عنـه الأسطورة « أنه قد ملك الأرض كلها ، وسار بالفجور والعسف ، وبسط يده فى القتل ، وأغضب أهل الارض كلها بسحره وخبثه ، وهـول عليهم بالحيتين اللتين كانتـا على منكبيه • وهما حيتان تقتضيانـه الطعام ، وتتحركان تحت ثوبه اذا جاعا ، كما أنهما كانتا تضربانـه حتى يغذيهما بدم انسان فتسكنا عنه (٢) » • ثم أمـر سـليمان عليـه السلام الجن أن يوثقوه ، وأن يزج به فى غار وضع على بابه طلسم • وقد قضى عليه أن يعيش فى هذا الغار الى الأبد • لا يبرحـه فيعيش فى الحياة ، ولا يموت فيسكن الى الراحة •

هذه الصورة التى حققتها أساطير الأشرار للانسان الشرير ، حققتها كذلك القصة الفنية والمسرحية بصورة واسعة • وما تـزالا تحققانها • وقد رأينا أنه قد تكونت من شخصية فاوست فى الأسطورة

---

(١) الأبيدى : بلوغ الأرب ، ج ٢ من ص ٢٧٨ الى ٢٨٠
(٢) المرجع السابق ، ج ٢ ص ٢٢٠

الأصلية نماذج أخرى لهذا الغاوست : عند كالديرون ، ومارلو، وجوته. بل أليست شخصية سعيد مهران فى قصة اللص والكلاب تجسيدا رائعا للشر ؟ أنه نموذج للانسان الذى تنتهى به رغباته الانسانية الجامحة الى فقدان كل شىء . وقد ظل سعيد مهران — رغم نداء الشيخ الطيب له ، وهو فى القصة رمز للهدى والايمان ، ظل يطلب الانتقام من الحياة التى لم تمنحه ما أراد ، حتى استسلم فى النهاية الى اليأس المرير ، كما استسلم الى الحياة لكى تفعل به ما تشاء ..